المحور الخامس

جمالية الإنتاج الفني لعمر راسم الفنان الخطاط والمزخرف

قراءة في الخط الكوفي من خلال أعمال عمر راسم الفنية

د. عبد الحق معزوز
أستاذ الآثار الإسلامية
معهد الآثار - جامعة الجزائر

تمهيد

ليس إلى الشك سبيل في أن الفنان عمر راسم هو خطاط من الرعيل الأول، وأحد أعمدة الفن العربي، وواحد من الرجالات الفنية الجزائرية المعاصرة الذي يشهد له بكفاءته في فن الزخرفة والمنمنمات، وببراعته في فن الخط العربي، لا سيما منه الخط المغربي، كل من شاهد أعماله من الذين يتذوقون جمالية الفن العربي الأصيل. لقد نعتته جريدة المباحث التونسية بشيخ الفنانين وكبيرهم.[1] وقد حي الشاعر يحيى بن أحمد الأكحل فن عمر راسم بقصيدة من سبعة أبيات يقول في مطلعها[2] :

حي النبوغ، وحي في ذا "راسما" بجميل خط في الصحائف راسما

إلى أن يقول :

هذبت يا عمر المهذب نشأة بجميل فنك دلالا ته دائما

كونت فيها رقة الإحساس بل فيها خلقت قرائحا وعزائما

كما نظم محمد العيد محمد علي خليفة قصيدة شعرية بتاريخ يوم الأربعاء 9محرم 1358هـ/1 مارس 1939م نوه فيها بأعماله، وببراعته الفنية، ومواهبه الإبداعية، التي أبرز من خلالها المكانة المرموقة التي احتلها عمر راسم في عوالم الفن في ذلك الوقت، نقتبس منها الأبيات الآتية :

رفعت فنك الجزائر قدرا ❖❖❖ وأحلته في المقام الكبير

بارع الرسم بارع الخط فيها ❖❖❖ عمر راسم بدون نكير

أزهر الفن في يديك وواتى ❖❖❖ قلم الخط ريشة التصوير

كل من قد رأى رسومك أبدى ❖❖❖ كل مدح وفاه بالتكبير

يصف الشاعر محمد العيد بحسه الفني الأدبي المرهف حسن قلم وريشة الفنان عمر راسم، فيصور للقارئ الجمال الفائق والحسن الرائق الذي تتميز به خطوطه بجميع أنواعها، ورسوماته على حد السواء، حيث اعتنى بالاثنين معا دون تفضيل جهة على الأخرى.

إسهامات عمر راسم الفنية

استطاع عمر راسم بما حباه الله من مواهب فنية، وحنكة مهنية، وبراعة أنامله، وجمال ريشته، أن يساهم في تطوير هذا الفن في بلادنا في وقت كان في من الصعب جدا على الجزائريين أن يفكروا في غير المتطلبات الضرورية للحياة، وفي وقت لم يكن بوسع أي جزائري التفكير في أمور الفن وغير ذلك من المجالات التي

كانت في الغالب حكرا على الأوربيين فقط. ففي ظل تلك الظروف الاجتماعية والسياسية غير المشجعة، ظهر الفنان عمر راسم كفارس مغوار في فن الرسم المعروف بفن الرقش، أو فن المنمنمات، وخطاطا ماهرا في فن الخط العربي بجميع أنواعه، وقد استطاع أن يرتقي بهذا الفن في تلك الظروف الصعبة إلى أعلى درجات سلم الرقي والازدهار، حتى أصبحت هذه الرسوم محل مدح وتقدير واحترام من كل المشاهدين، وما أن يقع نظر مشاهد على أحد أعماله إلا وأثنى أو أشاد بحسن خطه وترنم ببهائه وجمال ذوقه.

ولا غرابة في ذلك، فقد نشأ عمر راسم في بيئة فنية منذ نعومة أظافره، وترعرع في عائلة امتهن معظم أفرادها فن الرسم، والخط، والزخرفة، والموسيقى والشعر. ولعل لإطلاق لقب راسم على هذه العائلة ليس من باب الصدفة، وإنما بسبب موهبتها الفنية، فقد كان أبوه علي راسم من أشهر الرسامين والمزخرفين على مادة الخشب في عصره، وكذلك كان عمه محمد راسم الذي اشتهر أكثر بفن الخط، وإلى عمه يعود الفضل بتعلم عمر مبادئ هذا الفن والتحكم في أسراره وضوابطه.

لقد كان لعمر راسم إسهاما وافرا في نشر هذا الفن وتعليمه للنشء الجزائري فلم يحتفظ راسم بأسرار فنه لنفسه، ولم يجعله حكرا عليه وعلى أسرته، كما كان يفعل الكثير من الحرفيين والفنانين، بل عمل وساهم في تعميمه وتعليمه للشباب، لأنه كان يعشق فنه، والفن عنده فن، وأصالة، وإبداع، لا صنعة ولا تقليدا ولا

تهريجا[3]. وكان يدرك تمام الإدراك أهمية التربية الفنية وانعكاسها الإيجابي في تكوين العقل، وإصلاح الفرد والمجتمع الجزائري، لذلك اعتبر عمر راسم نفسه صاحب رسالة إنسانية حضارية بكل أبعادها الجمالية والفنية والثقافية، وأخذ على عاتقه هذه المهمة النبيلة، وهي مهمة الأنبياء والرسل، فكون جيلا محبا ومتقنا للفن، ومجيدا للخط، إيمانا منه بأن ما يقدمه الفن والتصوير، إنما هو تجسيدا للتاريخ، ونشرا للفضيلة ومحامد الصفات، وتهذيبا للروح، وتربية للذوق الرفيع في الانسان.[4]

وما كان لهذا الفن أن يجتاز الحدود الإقليمية ويصل إلى المستوى العالمي، لولا شجاعة عمر راسم الذي قاد نضالا متواصلا، لا هوادة فيه، على جميع الجبهات، وعلى مختلف الأصعدة، من أجل رفع كلمة الحق الذي صدح بها عاليا أمام المستعمر الفرنسي الغاشم. وصدق الدكتور محمد ناصر الذي قال : "فكان عمر راسم يمثل هذا الحارس الأمين الذي هو بمثابة الضمير لهذا الشعب المسلم في فترة عصيبة تعرض فيها الشعب الجزائري لحملة صليبية حاقدة تهدف إلى تذويبه والقضاء على كل ما له مساس بحضارته وشخصيته".[5]

عمر راسم والخط العربي

يعتبر عمر راسم (1883/ 84 -1959م) من رواد مدرسة الخط العربي في الجزائر، وقد استغل راسم هذا الفن الأصيل ووظفه توظيفا جيدا يليق بمكانته في كل أعماله الفنية، وبجميع أبعاده الجمالية ومعانيه الروحية.

تعلم عمر راسم الخط العربي إلى جانب فن الرسم منذ نعومة أظافره، فكانت أسرته التي كانت تمارس فن النقش وتمتهن فن الزخرفة على الخشب منذ القدم، المنهل الذي نهل منه عمر راسم أصول هذا الفن، والمصدر الذي أخذ منه مبادئ فن الخط على يد عمه الذي كان خطاطا موهوبا.

وظف عمر راسم الحرف العربي الذي يعتبر من روافد الفن العربي الإسلامي الأصيل بأنواعه الثلاثة (الكوفي والثلث والمغربي) كعنصر زخرفي مثل بقية العناصر الزخرفية الأخرى النباتية والهندسية، غير أن اهتمامه كان مركزا ومنصبا أكثر على الخط العربي جاعلا منه الموضوع الرئيس والأساسي في معظم أعماله الفنية، في حين جاء توظيف فن الرقش، في هذه الأعمال، كعنصر ثانوي مكملا ومتمما للزخرفة الخطية، موظفا إياها على صورة أشرطة لتوشيح رؤوس اللوحات ومراكزها وأسفلها بمختلف الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والحكم، والأمثال، والمأثورات، وغيرذلك...

الخط الكوفي في أعمال عمر راسم الفنية

لم يعر عمر راسم الخط الكوفي الأهمية نفسها التي أولاه للخط المغربي، لذلك لم يترك لنا عمر راسم من هذا الخط إلا نماذج قليلة جدا تعد على الأصابع، لا ترقى في الحقيقة لمستوى الخط المغربي، و لا تسمو أيضا إلى رتبة فن الرقش العربي الذي برع فيه، إذ لم يوظف الخط الكوفي إلا في توشيح بعض اللوحات الزخرفية،

إلى جانب توظيفه في كتابة عدد قليل من عناوين جريدة ذو الفقار، التي كان يصدرها هو شخصيا ويشرف عليها كتابة وزخرفة.

لم يبرز عمر راسم في مختلف أعماله الفنية، أبعاد هذا الخط الجمالية والتاريخية، بما يجسد مكانته التي اشتهر بها على مدى القرون الإسلامية الأولى، وإنما انحصر استعماله، كما سبق وأن ذكرت، في بعض التجليات الجمالية، والمظاهر الزخرفية القليلة جدا، مقتصرا في ذلك على تزيين وترصيع بعض الأعمال القليلة التي لا تعكس في الواقع الوجه الحقيقي لمكانة هذا الخط وتاريخه المجيد بين مختلف الفنون الإسلامية.

إن حب عمر راسم وشغفه بالخط والزخرفة المغربية، جعله يصرف اهتمامه عن أنواع الخطوط الأخرى مثل الخط الكوفي وبدرجة أكثر الخط النسخي والثلث التي لا نجد لها إلا فضاء صغيرا في أعماله الفنية، وهذا ما جعل كتاباته في هذا المجال قليلة التنوع ويغلب عليها طابع التكرار، وهو ما يستشف من خلال أشرطة الخط الكوفي. بينما حضي الخط المغربي الذي هو فرع من فروعه بكل العناية والاهتمام، مما انعكس جليا على هذا الخط.

أسلوب الكوفي في أعماله

ولو نظرنا بعين فاحصة إلى أسلوب الخط الكوفي في أعمال عمر راسم الفنية، (زخرفة منمنمات) لتبين لنا جليا سعة اطلاع هذا الفنان الذي كان على دراية، وعلى معرفة بمختلف الأساليب الفنية

للخط العربي عموما، مما يدل على معرفته الجيدة بالخط الكوفي، والتبحر في أصوله وجذوره والتحكم في أسرار أحكامه وقواعده الفنية والأدبية. وهو ما يتجلى بوضوح في مختلف لوحاته الفنية التي تركها هذا الفنان، والتي تعكس إلى جانب مواهبه الإبداعية، مدى قدرة الفنان في التحكم في أصول وقواعد هذه الأساليب إن في جانبها الفني، أم في جانبها التقني.

ورغم وجود بعض الإسقاطات والفلتات الفنية في بعض الأشرطة الكتابية، والتي أحسبها متعمدة الهدف منها، حسبما يبدو، إنجاز لوحة خطية تمتزج فيها صور من الحروف اليابسة إلى جانب صور من الحروف اللينة بأسلوب جميل، وفي قالب فني متناغم ومتناسق. وقد نجح إلى حد كبير في إعداد قاعدة تناسقية بين أسلوبين متناقضين في الكلمة الواحدة، ويتجلى ذلك في حرف الحاء في كلمة "الرحمان" وكلمة "الرحيم"، وحرف الهاء والجيم في كلمة هنا الجزائر(لوحة4 : ص.4، 3 - لوحة 6 : ص1)، حيث تبدو هذه الحروف اللينة خارج إطار الصورة، ورغم ذلك لم يؤثر شكلها اللين على باقي الحروف الأخرى، نظرا لطبيعة ومزايا هذا النوع من الكوفي المعماري الذي تتميز حروفه بقدرتها على التشكيل في شتى الصور، وسهولة اندماجها مع الحروف النسخية، وهي إحدى خواص ومميزات هذا النوع من الخطوط الذي استطاع أن يستوعب وينسجم مع كل أنواع الحروف بدون استثناء. ولا عجب في ذلك، فهو أصل كل الخطوط، وباقي الخطوط هي فروع منه، وحقيق على الأصل

أن يحتوي الفرع، والعكس ليس صحيحا، فعلى مدى القرون الهجرية الأولى، حينما كان الخط الكوفي في أعز شهرته متربعا على عرش الكتابة والخطوط، لم تكن حروفه تخلو من بعض الحروف اللينة.

لقد اختار عمر راسم الخط الكوفي المعماري لتزيين لوحاته الزخرفية ومنمنماته، وجعل منها أوشحة لإضفاء المزيد من البهجة والتنوع على اللوحة، وذلك من خلال تعانق الحروف وامتزاجها مع العناصر الزخرفية من عناصر نباتية وهندسية ورمزية، في تناغم وتناسق جملين رائعين تهش إليهما الأعين وتسر لهما النفوس، زادته الألوان الراقية الجميلة تناغما وتجانسا، ينم عن حس فني رفيع، ومهارة عالية، وتحكم جيد في مختلف الأساليب الفنية والتقنية، سواء ما تعلق بالحروف أو بالعناصر الزخرفية أو بالألوان.

لقد كان عمر راسم من المدافعين الشرسين على التمسك بالأصالة مع التجديد، لذلك راح يبحث عن الجديد من خلال الإرث الحضاري لأمته، فوظف الخط الكوفي المعماري (ذي الزخرفة المعمارية) الذي اشتهرت به بلاد المغرب والأندلس، لقد تزامن ظهور هذا الخط وانتشر مع انتشار الخط المغربي في العدوتين على حساب الخط اللين الذي أخذ مكانة الخط الكوفي التقليدي مع بداية حكم الموحدين لبلاد المغرب، وقد كانت بداية ظهور الكوفي المعماري على النقود (الدراهم) أولا، ثم انتشر استعماله على سائر

المواد وخاصة مادة الجص، كما تبرز ذلك مختلف الكتابات الأندلسية والمغربية، التي تعود إلى القرن الثامن الهجري، وما بعده في مختلف المساجد، والقصور، والمدارس، والأضرحة، وغير ذلك من المباني المدنية والدينية والعسكرية.

ويعتبر التظفير من الأساليب الفنية القديمة، الذي يعود تاريخه إلى القرن الرابع الهجري[6]، وهو من جملة الأساليب الفنية التي لا يكاد يخلو منها أي شريط كوفي، لما يتميز به هذا الأسلوب من ليونة وطواعية في تشكيل العديد من الصور الجمالية، والربط بين مختلف الحروف الكتابية، الصاعدة منها والنازلة. فأسلوب التضفير ظاهرة زخرفية زادت من جمالية الأشرطة الكتابية. وقد وظفه عمر راسم بكل براعة في بعض أعماله الفنية، حيث استطاع هذا الفنان أن يشكل من الضفيرة أطرا للأشرطة الكتابية والزخرفية على السواء، وذلك بتمديد هامات الصواعد المعقوفة للحروف، في أعلى وأسفل الشريط، مكونة بذلك إطارا طبيعيا للأشرطة الكتابية، (لوحة4 : ص.4، 3 -لوحة5 : 2، 1)، وقد نجح راسم انطلاقا من قائمين على يمين ويسار الشريط أن يكون جديلة ينتهي أحد أطرافها بمروحة مزدوجة الفصوص، و الطرف الآخر بمروحة ثلاثية الفصوص.

وفي لوحة زخرفية ثانية كتبت عليها البسملة وفاتحة سورة الفتح على أرضية نباتية، وظف فيها الفنان حرفي الألف اللام

بأسلوب زخرفي محض، مشكلا منهما جديلة بسيطة خالية من التكلف الزخرفي، مكونا بذلك شكلا هندسيا يحاكي شكل المعين الذي يتوسط الصاعدين. وأما الصورة الثالثة للتضفير فهي مجسدة في لوحة ثالثة في كلمة العز والأفراح، حيث يتقاطع فيها حرف الألف مع اللام بنفس الصورة السابقة، لينبثق من وسط التقاطع زهرتان ثلاثية البتلات، واحدة على اليمين والأخرى على الشمال، مما أضفى على المشهد بعدا زخرفيا.

ويمكن ملاحظة التوظيف الكبير للمروحة بجميع أنواعها وخاصة الثلاثية التي اشتهر بها الحماديون والمرابطون في القرن السادس الهجري، والتي انتقلت إلى المرينيين والزيانيين وبني الأحمر الذين أفرطوا في استعمالها بشتى الصور والأشكال. وقد سجلت المروحة حضورها المكثف في جميع الكتابات الكوفية بصورتها المزدوجة والثلاثية بصفة خاصة. وأما المزدوجة فنجدها مجسدة في كلمة "الشهاب" و"هنا الجزائر، و"كتاب الجزائر". وأما الثلاثية فهي كثيرة الاستعمال أيضا، حيث لا يخلو شريط كتابي منها، فقد وضفت في عنوان جريدة "ذو الفقار"، وفي البسملة وفي أحد المنمنمات تزين نهايات حروف الحديث النبوي الشريف، تتناوب أحيانا مع المروحة المزدوجة، في الوقت الذي توجت نهايات حرف(الميم، والواو، والنون، والراء) بالمروحة المزدوجة. وأما كلمة ذو الفقار فقد زين هامات ونهايات حروفها الصاعدة والنازلة بالمروحة الثلاثية الفصوص. ولم يتوقف عمر راسم عند هذا الحد من الإبداع، وإنما وظف

المروحة الثلاثية توظيفا كتابيا، بحيث جعل منها حروفا عوض رؤوس الحروف المقفولة مثل الواو والقاف والفاء، كل ذلك كتب على خلفية صورة الفقار الذي يرمز إلى القوة والجهاد، والهلال والنجمة وهما شعار المسلمين، في حين وظف الزخرفة النباتية على يمين ويسار الشريط، مما أضفى على الكتابة بعدا زخرفيا حري بالتنويه والإشادة.

لقد تجلت مهارة عمر راسم وحنكته الفنية في معظم أعماله، سواء الكتابية منها أو الزخرفية، بما لا يدع مجالا للتقليل من قدراته وقوته الإبداعية. ولم يأبه عمر راسم برسم الحروف على أرضية شاغرة من العناصر الزخرفية، بل ذهب كغيره من الفنانين الكبار الذين تركوا لنا أعمالا خالدة من القرن الرابع والخامس الهجريين وما بعدهما، سواء من العصر الحمادي والمرابطي أو الموحدي وورثتهم الزيانيين، الذين أيدعوا في تزيين الحقول الكتابية، والمتفحص في أعمال هذه العصور يجدها مفعمة بالحيوية من خلال حروفها المرسلة، التي تتعانق وتتداخل مع بمختلف العناصر النباتية التي زادتها الفرشة التي تغطي أرضيتها قوة تعبيرية وحركية، جعلت المشهد أكثر عمقا، تبدو كأنها تصعد في تدرج يتنقل بالناظر عبر عدة مستويات منظورية، هذه التقنية التي برع فيها أسلف عمر راسم تحكم فيها ووظفها في إحدى كتاباته التي توشح أحد المنمنمات، حيث جعل فرشة نباتية كخلفية تنبثق منها الحروف على النحو الذي نجده في كتابة بجاية الحمادية، وتلمسان المرابطية

والزيانية (لوحة5 : ص.1). ولإضفاء المزيد من الجمالية والبهجة على أعماله الزخرفية الخطية، لجأ عمر راسم إلى استعمال أسلوب فني آخر ظهر لأول مرة في الكتابات العربية في الجزائر في القرن الرابع الهجري (10م) في مدينة سدراتة، ويتمثل هذا الأسلوب في القوس (Redan) الذي يقطع خطوط الوصل بين الحروف(La Ligature)، مثل حرف الهاء والباء في كلمة الشهاب، والكاف والتاء في كلمة كتاب، والجيم والزاي في كلمة الجزائر وغير ذلك، وتتدرج ماهية هذا الأسلوب على قطع خط الوصل بقوس زخرفي يهدف إلى كسر الرتابة وملء الفراغ وتحويل اتجاه الحروف (لوحة6 : 3، 2، 1).

علاوة على ما سبق ذكره من الأساليب الفنية، فقد وظف عمر راسم أسلوبا فنيا آخر تمثل في التقابل أو التناظر في كلمة "الفقار"، بين حرفي الفاء والقاف يتوسطهما هلال ونجمة(لوحة5 : ص.3)، وهو الأسلوب الذي ذاع استعماله أيضا في الفترة الزيانية والمرينية بتلمسان، والمغرب الأقصى والأندلس في كتابات قصر الحمراء في عهد دولة بني الأحمر، حيث وجدت نماذج لهذا الأسلوب في الكثير من الكتابات والآيات القرآنية في مساجد وقصور مدينة تلمسان وخاصة مسجد سيدي أبي مدين شعيب (لوحة7 : ص.2).

إن الهدف من استعمال أسلوب التقابل والتدابر في الأشرطة الكتابية، لا ينظر إليه على أنه إضافة جمالية على الكتابة فقط، وإنما هو أسلوب توازني تماثلي : أي لخلق التوازن في الشريط

الكتابي من خلال توظيف بعض الحروف والكلمات التي تتوفر فيها شروط التقابل والتدابر بما يضمن للكتابة عنصرا جماليا آخر هو التماثل والتناظر، الذي يعد من صميم قواعد الفن العربي الإسلامي، وفي هذه الصورة، أفلح عمر راسم إلى حد كبير في خلق هذا المشهد التراتبي والتناسقي بأسلوب تقني محكم زاد من جمالية الشريط الكتابي.

ومن العناصر الزخرفية النباتية التي وظفت بكثافة في مختلف الأشرطة الكتابية، نذكر على سبيل المثال استعماله للزهرة الثلاثية البتلات في معظم كتاباته الكوفية، بحيث جسدت بعدة أساليب فنية وتقنية، تارة شكلت بفعل تقاطع حرفين اثنين معا، وتارة بفعل تضافر على مستوى وسط صاعد الحرف الواحد مشكلا ذلك التقاطع زهرة ثلاثية البتلات، وتارة أخرى تتوج رؤوس بعض الحروف القصيرة مثل الياء في كلمة "**مبينا**" أو الطويلة كاللام في كلمة "**العز**" وحرف الألف في كلمتي "الصباح"و "الجزائر". ويلاحظ أن تتويج حروف هاته الكلمات بالذات، لم يأت صدفة، وإنما جاءت لأسباب فنية بحتة، سببها إيجاد واسط يكون بمثابة المركز الذي يتوسط جناحين وهما الألف واللام، لذلك نجد حرف الألف في كل هاته الكلمة، وكأنه يمثل وسط كفتي ميزان، إن هذا الأسلوب الفني لا يدركه إلا عارف مطلع على مختلف الأساليب الفنية القديمة، ولا يتقنه إلا ماهر محترف، متقن لمختلف الأدوات التقنية.

وأما سبب استعمال هذه التقنيات المختلفة فقد جاء لغرضين أساسيين؛ السبب الأول جمالي بالدرجة الأولى، والثاني لملء فراغات الحقل الكتابي من جهة ثانية لإحداث التوازن بين الحروف القصيرة والنازلة وبين الحروف الطويلة لإيجاد التناغم والتناسب في الحقل الكتابي ككل اقتداء بالأسلاف الذين وظفوا هذه الظواهر الفنية توظيفا رائعا ومكثفا في الكتابات النصرية والزيانية والمرينية في الأندلس وتلمسان والمغرب الأقصى.

ومن الأساليب الفنية الموروثة التي أحسن إتقانها الفنان عمر راسم ووظفها في مختلف أعماله الفنية، نذكر منها على سبيل المثال أسلوب العقف على النحو الذي استعمله الزيانيون والمرينيون وبنو نصر وغيرهم في كل كتاباتهم الكوفية المنقوشة على مختلف عمائرهم المدنية والدينية والعسكرية. لقد نجح عمر راسم في توظيف هذا الأسلوب الفني الجميل في إحدى لوحاته الفنية الجميلة(لوحة4، ص.2، 1)التي تجلت فيهما موهبته، وحنكته، وبراعة الفنية من خلال التوزيع الجيد لتمطيطات صواعد الحروف الطويلة(الألف واللام)، ثم عقفها يمنة ويسرة، تارة بزاوية قائمة، وأخرى بزاوية حادة أو منفرجة، مكونة بذلك إطارا للشريط الكتابي، لينهي حروف الكتابة بتتويج زخرفي مكون من مروحة ثلاثية أو مزدوجة البتلات، في مشهد متناغم ومتوازن زاد من جمالية اللوحة الفنية التي عمتها البهجة والحركة.

فضلا عن أسلوب العقف، يذهب بنا عمر راسم بعيدا بخياله وبحسه الفني، إلى أعماق التاريخ، وإلى حضارة أجداده الحماديين[1] الذين عاشوا في القرن الخامس والسادس الهجري، وقد عاد بذاكرتنا إلى ما ظهر في تلك القرون الخالية من عناصر خطية وزخرفية، كان الفنان الحمادي يستعملها في الكثير من كتاباته قبل أن يطمسها النسيان، ويعاد إحياؤها عمر راسم في بعض أعماله. ويتمثل هذا العنصر في طريقة إنجاز حرف الهاء الوسطية في كلمة الشهاب بأسلوب فني وزخرفي راق وجميل لا يصدر إلا عن فنان قدير في مستوى عمر راسم، ويظهر شكل الهاء وكأنه باقة ورد يشبه قوسا ثلاثي الفصوص مكون بأسلوب التقاطع، وينتهي في الأسفل بوردة ثلاثية الفصوص(لوحة6 : ص.4). وفي كلمة باسطوس عمل عمر راسم على إنجاز حرف الطاء بأسلوب زخرفي لا يقل عن أسلوب حرف الهاء الوسطية في كلمة الشهاب، والتي تذكرنا بنظيرتها الحمادية في الجامع الكبير بقسنطينة(530هـ). ويشكل هذا الحرف من جزئين : الجزء الأول عبارة عن حرف الحاء اللينة بصورتها المغربية تتوسطها بتلة(لوحة6 : ص.5)، وهي على قدر كبير من الرقة والتهذيب. معبرة على جمالية الحرف التصويري، وعلى طواعيته وليونته، وإمكانية تشكيله وفق خيال الفنان من دون أن ينقص ذلك من قيمته الوظيفية شيئا.

ومن الأساليب الفنية الأخرى التي استعملها عمر راسم نجده يوظف أسلوبا فنيا آخر عرف بالأسلوب بالتركيبي، الذي يستعمله

الفنان إما لغرض زخرفي، أو حينما يضيق الحقل الكتابي ولا يستطيع احتواء النص بقياساته العادية حينها يلجأ الفنان لإتمام الكتابة، وفق هذا الأسلوب الذي تجسد في كلمتي "الرحمن" و"الرحيم" في إحدى لوحاته الفنية الجميلة جدا (لوحة4 : ص.1، 2، 4)، حيث استطاع بمهارته أن يمزج الألوان النقية والصفية بتناسق وتدرج مع الأشكال الهندسية، والنباتية، والكتابات الكوفية والنسخية بذكاء فائق، وببراعة عالية تنم بحق عن زخر المعارف، وسعة الاطلاع، والاحترافية، والمهنية الفنية لدى هذا الفنان الكبير، المتعدد المواهب، حتى أنه عرف لدى البعض بالفنان المتعدد الاختصاصات.

وحقيق علينا أن نصفه بهذا الوصف، لأنه يحسن التصوير والمنمنمات، ويجيد رسم الخط بأنواع المختلفة، ولا سيما الخط المغربي، كما انه لعبة السياسة وصحفي ماهر وموهوب، ومتمرس ضليع في مختلف الفنون، ومصلح اجتماعي، وظف كتاباته الصحفية لخدمة مجتمعه، وثائر ضد الفساد، والجهل، والاستعمار، والتقليد الأعمى، وغير ذلك من الظواهر والآفات الاجتماعية.

هذا هو عمر راسم الفنان الكبير الذي وظف فنه سلاحا قويا في وجه عدوه لخدمة قضية أمته، وهو الذي أعاد إحياء فن المنمنمات، والخط العربي، بعد ما كاد أن يطمسهما المستعمر الفرنسي، بمحاولاته العديدة لمحو شخصية هذا الشعب، وقتل روح المبادرة وإطفاء جذوة المقاومة فيه. ففي خضم تلك الظزرف ظهر عمر

راسم بقوة عزيمته، وثبات شخصيته، وصلابة موقفه المستمد من أصالة ثقافته وتاريخه العريق، غير آبه بما يخبئه له الدهر، ولم يثنيه عن ذلك خوف، ولا قوة وبطش المستعمر الفرنسي الذي زج به في السجن لسنوات عديدة، لقد تحدى عمر راسم الصعاب، معتمدا أولا على صبره، وعزيمته، وصدق نواياه ومشروعية قضيته، مستعملا كل الإمكانات المتاحة والموجودة بين يديه، ومن بينها الفن سواء كان فن التصوير أو فن الزخرفة الخطية، الذي سخرهما خدمة لقضيته وتحقيقا لمشروعه الثقافي والاجتماعي والسياسي، مضحيا بوقته وبماله وبحريته الغالية في سبيل تحقيق غايته، وغاية أمته رغم ما لحقه في سبيل ذلك، إنه عمر راسم محي الفنون الإسلامية في الجزائر والمصلح الثائر ضد الجهل والتخلف والتقليد والقهر والظلم والعبودية والاستعمار الغاشم، مستعملا قلمه وريشته وألونه لتبديد ظلام الاستعمار المسلط على شعبه وتنوير أمته فكان بمثابة المشعل الذي ساهم في إضاءة سبيل النضال، وتعبيد درب الحرية والاستقلال للشعب الجزائري.

الهوامش

1 ـ المباحث التونسية ع. 9 (جانفي 1945)، نقلا عن محمد راسم المصلح الثائر مطبعة لافوميك الجزائر (ب. ت)، ص52.

2 ـ نشرت هذه المقطوعة الشعرية في جريدة النجاح، ع2242 (عام 1939) وهي مؤرخة بـ 1939/1/8.

3 ـ هنا الجزائر، ع. 59، (نوفمبر 1957).

4 ـ المصدر نفسه، (جوان 1953)، نقلا عن محمد ناصر، المرجع السابق، ص 56.

5 ـ محمد ناصر، المرجع السابق، ص 50 - 51

6 ـ أول ظهور له على مقصورة المعز بن باديس بجامع القيروان بتونس.

7 ـ ينسب عمر راسم نفسه إلى الحماديين، وقد لقب نفسه في كتاباته الصحفية بابن المنصور الصنهاجي، والمنصور هو أحد الأمراء الحماديين الذين حكموا الدولة الحمادية من 481 هـ إلى 498 هـ. وقد عاش هذا الأمير حياة حرب ضدّ الأعداء كما قام بتشييد المباني ودور الصناعة والقصور وغيرها من الأعمال ذات المنفعة العامة.

لوحة 1 : أسماء شوارع القصبة

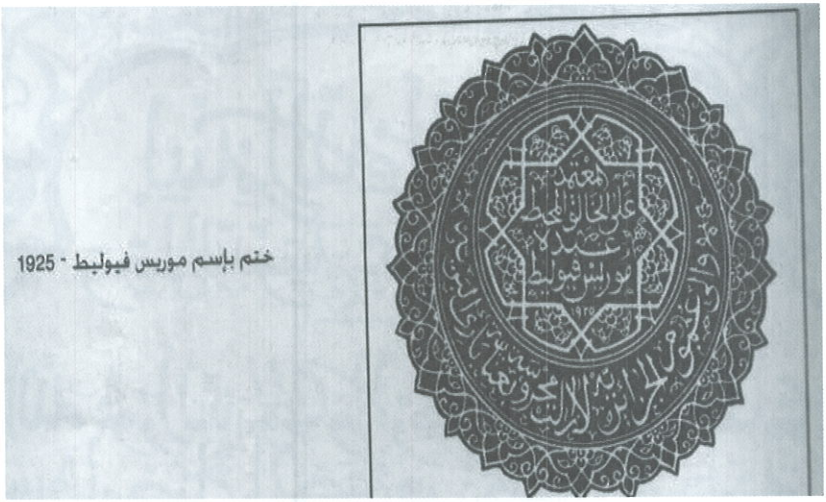
ص : 1 خط مغربي مجوهر



ص : 2 خط مشرقي (الثلث)



ختم حاكم الجزائر موريس فيوليط، بخط مشرقي



لوحة 2

آية الكرسي بخط مغربي مبسوط



لوحة3 :

ص : 1 - منمنمة تزين مركزها زخارف خطية دائرية بخط الثلث.



ص : 2 - رسم زخرفي بخط الثلث بأسلوب تقابلي كمثري الشكل



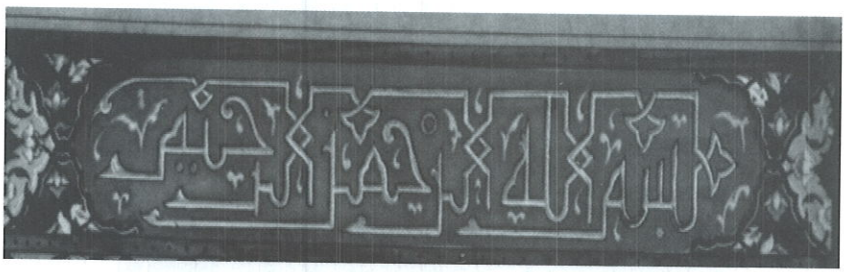
لوحة4

ص 1، 2، منمنمات موشحة بالخط الكوفي المعماري

على شكل أشرطة أعلى وأسفل اللوحة



ص3 : البسملة بالكوفي المعماري



ص4 : فاتحة سورة الفتح بخط كوفي معماري مركب



لوحة5

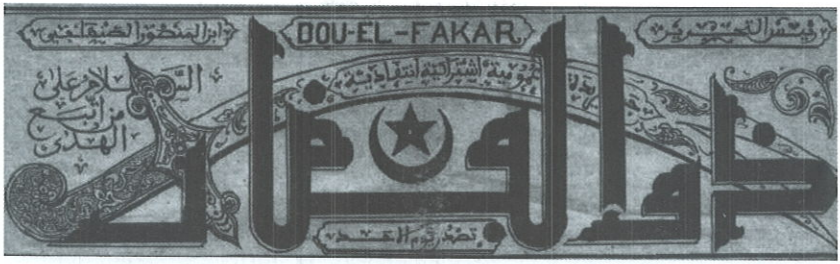
ص1 : شريط ان يزينان إحدى المنمنمات بخط كوفي معماري مظفر ومزهر



ص2 :



ص3 : عنان جريدة ذو الفقار بخط كوفي مزهر متقابل



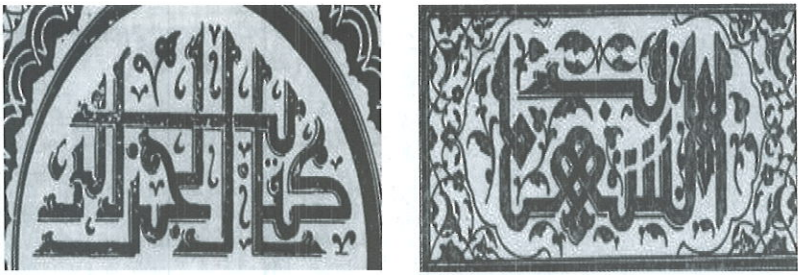
ص4 : عنوان الجريدة بخط مغربي



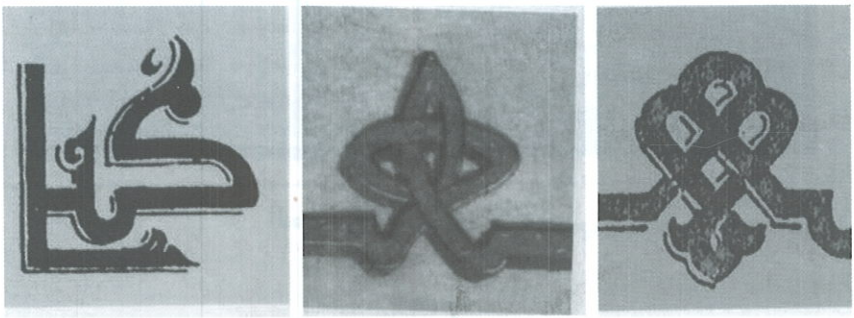
لوحة6 : نماذج متعددة من الخطوط الكوفية



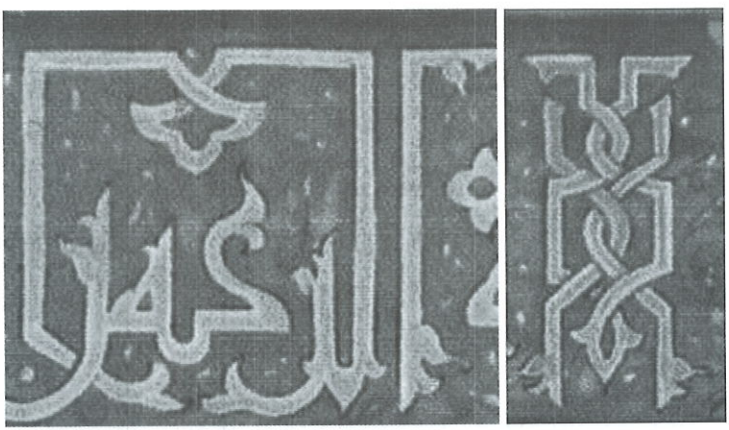
1



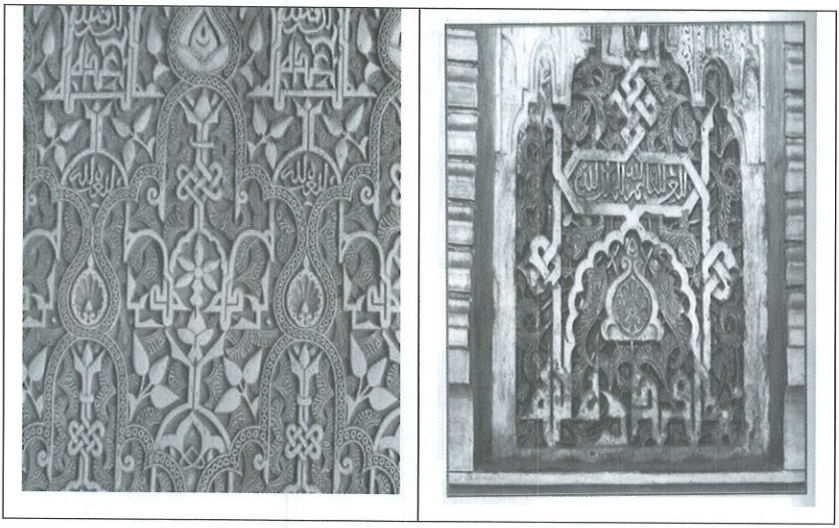
3 2



6 5 4



ص1 : خط كوفي مزهر



الكوفي المعماري الأندلسي